أسباب نزول القــرآن

حـقيقتـها أهميتها فوائدها آثارهــا على التفسير

د / مصلح يحيى علي جزاز
أستاذ التفسير المشارك - قسم الدراسات الإسلامية
كلية الآداب - جامعة الحديدة

إن الحاجة إلى التعرف على أسرار القرآن الكريم وعلومه لا تزال قائمة، وستظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ ذلك أن هذا الكتاب هو معجزة محمد ﷺ ، التي أيده الله بها إلى يوم القيامة، وقد حوى من العلوم والمعارف والأخبار، ما لا تنقضي عجائبه ومن الأسرار ما لا تنتهي على مر الأيام وتصرمها ، ففي كل عصر تتبدى للعلماء معان ومعارف لم يتفطن لها من سبقهم ، وتظهر أنواع من الإعجاز لم تبد لأسلافهم، وقد وعد الله تعالى عباده ببيان هذا الكتاب وما اشتمل عليه من عجائب ومعجزات وأسرار وعلوم لا تنتهي، قال عز من قائل عليم : (سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَ لَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣)[فُصِّلَت:٥٣] .

أهمية الموضوع وأسباب اختياره :

لقد اشتمل القرآن على علوم كثيرة ومعارف شتى، ومن أهم هذه العلوم علم أسباب النزول ، فقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم منجما مفرقا على نبينا محمد ﷺ على مدى ثلاث وعشرين سنة، حسب الحوادث والوقائع التي كانت تحصل في زمن النبي ﷺ، وبهذا يكون نزول القرآن على ضربين هما :

- ما نزل ابتداء من أجل الهداية أو الأحكام أو الاعتبار بالأمم السابقة : وهو ما لم يتقدم نزوله سبب يقتضيه ، وهذا غالب آيات القرآن الكريم وسوره .
- ما تقدمه سبب : اقتضى نزوله ؛ من سؤال أو حادثة أو واقعة ونحوها ، وهذا ما يتعلق بموضوع البحث الذي نحن بصدد ه ألا وهو أسباب نزول القرآن .

إن علم أسباب النزول أحد علوم القرآن الهامة التي يتبين بها مقاصد القرآن ويندفع بها الكثير من الشبهات ، وله أثر كبير في فهم معنى الآية ؛

لذا عده العلماء من الأمور والعلوم التي لا غنى للمفسر عنها ، والتي يحتاجها لبيان كتاب الله وتفسيره .

يقول الشاطبي رحمه الله : (معرفة أسباب التنزيل لازمة لمن أراد علم القرآن)، بل إنه يعد أحد ألأصول التي ينبغي أن يعتمد عليها المفسر في تفسيره لكتاب الله عز وجل ، فهو أحد أصول التفسير الهامة وهو أحد الأسس التي يستند إليها المفسر في إدراك وفهم كتاب الله تعالى ، لذلك عده العلماء شرطا أساس من شروط أهلية المفسر لكلام الله تعالى .

وتظهر أهمية الموضوع من خلال ما يلي :

- لما للعلم بنزول القرآن من أهمية كبيرة في الإيمان به وأنه كلام الله المنزل على نبيه ﷺ .
- أنه يعين على فهم الآية، فبعض الآيات لا يمكن بيانها ومعرفة معناها إلا إذا وقفنا على سبب نزولها .
- اهتمام كثير من علماء السلف رحمهم الله بهذا العلم، ونصهم صراحة على تحتم معرفته، لمن أراد أن يفسر كتاب الله تعالى، ومن ذلك : قول ابن تيمية رحمه الله : (ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية ، فإن العلم السبب يورث العلم بالمسبب)، ويقول الشاطبي رحمه الله : (معرفة أسباب التنزيل لازمة لمن أراد علم القرآن) .

وترجع أسباب اختيار الباحث لهذا الموضوع الحيوي والهام إلى ما يلي:

١. خلط بعض المفسرين بين ما هو من قبيل أسباب النزول وبين ما هو من قبيل الإخبار عن الوقائع الماضية أو ما هو من قبيل التفسير ولا سيما في صيغ أسباب النزول المحتملة .
٢. ولأن بعض المفسرين يهملون العلم بأسباب النزول عند تفسيرهم لكتاب الله، مع ضرورته؛ فإن من أسباب النزول ما يكون وحده تفسيرا للآية ، فلا بد من معرفته، ولا يجوز تفسيرها بغيره .

٣. ولأن معرفة أسباب النزول تزيل الإشكال وتنهي النزاع، فهو من الأصول الهامة التي ينبغي للمفسر معرفتها في تفسيره للقرآن .

أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى بيان :

١) نزول القرآن ومراحل نزوله والغرض من إنزاله.
٢) أسباب النزول، وبيان أهميتها في معرفة تفسير القرآن الكريم .
٣) فوائد معرفة أسباب النزول، وآثرها على التفسير

محتويات البحث : يحتوي البحث على مقدمة ومبحثين:

اشتملت المقدمة على أهمية البحث وأسباب اختياره وأهدافه.

أما المبحث الأول: فقد احتوى على نزول القرآن ومراحل نزوله والغرض من إنزاله وفيه مطلبان .

المطلب الأول : نزول القرآن ومراحل نزوله .

المطلب الثاني : الغرض من إنزال القرآن .

وتضمن المبحث الثاني: التعريف بأسباب النزول وأهميتها وفوائد معرفتها وأثرها على التفسير وفيه أربعة مطالب

المطلب الأول : التعريف بأسباب النزول .

المطلب الثاني : أهمية أسباب النزول .

المطلب الثالث : فوائد معرفة أسباب النزول .

المطلب الرابع : أثر أسباب النزول على التفسير وبيان المراد .

المبحث الأول: نزول القرآن ومراحل نزوله والغرض من إنزاله:

المطلب الأول: نزول القرآن ومراحل نزوله:

يعد القرآن الكريم آخر الكتب السماوية نزولاً، قال تعالى: (الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ ٤)[آل عمران: ١-٤]، وبنزوله اكتمل عقد الرسالات السماوية، التي ختمت بخاتم النبيين وسيد المرسلين محمد ﷺ الذي كرم الله هذه الأمة بالانتساب إليه.

والقرآن الكريم كلام الله تعالى، منه بدا بلا كيفية قولاً، وأنزله على رسوله ﷺ وحياً[١]، بين فيه الحق تبارك وتعالى أصول دينه، ودلائل ربوبيته ووحدانيته وأسماءه وصفاته، وبين فيه كذلك دلائل نبوة أنبيائه، ودلائل المعاد وإمكانه، وقدرته سبحانه تعالى عليه، وبين وقوعه بالأدلة السمعية والعقلية[٢].

وقد أنزله الله على قلب نبينا محمد ﷺ،عن طريق أمين الوحي جبريل عليه السلام كما أخبرنا سبحانه فقال : (وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤)[الشعراء ١٩٢-١٩٤] ، أنزله مؤيداً بالحق ومهيمناً على ما سبقه من الكتب، قال تعالى : (وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ ٤٨)[المائدة:٤٨] . فلا يأتي كتاب بعده ولا مغير ولا مبدل لشيء من شرائعه، وليس لأحد الخروج عن شيء من أحكامه[٣] قال تعالى : (الٓمٓصٓ ١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣)[الأعراف: ١-٣ .

وقد أنزله الله في ليلة مباركة كما أخبر سبحانه، فقال عز من قائل: (إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣)[الدخان:٣] ، وهذا هوالنزول الأول

---

[١]) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص١٧٢.

[٢]) النبوات، لابن تيمية، ص ٢٤١.

[٣]) معارج القبول لحافظ بن أحمد حكمي ٢ / ٩٤.

حيث فصل من اللوح المحفوظ ووضع في بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل بعد ذلك منجماً على مدى ثلاث وعشرين سنة[٤]. قال تعالى : (إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١) [القدْر:١]. وروى الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : فصل القرآن من الذكر، فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا، فجعل جبريل ينزل على محمد ﷺ ويرتله ترتيلاً [٥]، وعنه أيضاً قال في قوله تعالى : (إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١) [القدْر:١]، قال : أنزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا، وكان بمواقع النجوم، وكان الله ينزل على رسوله ﷺ بعضه في إثر بعض)[٦]، و بهذا يكون للقرآن نزولان : -

الأول : فصله من اللوح المحفوظ، ثم نزوله جملة واحدة إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ولعل السر في ذلك تفخيم أمره وأمر من نزل عليه؛ وذلك بإعلام سكان السماوات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم قربناه إليهم لننزله عليهم[٧].

الثاني: نزوله منجماً أي مفرقاً من السماء الدنيا على قلب النبي ﷺ، مدة ثلاث وعشرين سنة؛ منذ بعثته عليه الصلاة السلام وحتى وفاته، على حسب الوقائع والأحداث التي كانت تحصل في أيامه ﷺ ، وفي نزوله بهذه الطريقة حكم جليلة وفوائد عظيمة منها[٨] : -

١. تثبيت قلب النبي ﷺ، وتحمله اذى المشركين، فقد كان إذا نزل حالاً بعد حال يقوي قلبه بمشاهدته، مما يجعله اقوى على أداء ما حمل من الرسالة والصبر على عوارض النبوة، واحتمال أذية قومه قال تعالى: (وَقَالَ ٱلَّذِينَ

---

[٤]) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ١ / ٥٧.

[٥]) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي انظر المستدرك ٢ / ٢٤٢ حديث ٢٨٨١.

[٦]) أخرجه الحاكم وصححه وهو على شرط البخاري ومسلم ووافقه الذهبي المستدرك ٢ / ٢٤٢ حديث ٢٨٧٨.

[٧]) لإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١ / ٥٨

[٨]) إظهار الحق، رحمه الله الهندي ص٥٥. انظر كذلك البيان في علوم القرآن، محمد الصابوني ص ٣٥،

كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢)[الفرقان:٣٢].

٢. التلطف بالنبي ﷺ، والترفق به، إذ أنه لم يكن من أهل القراءة والكتابة؛ فلو نزل عليه جملة واحدة ربما كان لا يضبطه، ولجاز عليه السهو، فنزل منجماً؛ ليسهل حفظه وفهمه، ولتبقى سنة الحفظ في أمته من بعده، وقد يسر الله لها ذلك، ويشهد لذلك قوله تعالى: (وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧)[القمر:١٧].

٣. التدرج في تشريع الأحكام والانتقال بالبشر من مرحلة إلى مرحلة؛ لتثبيت دعائم الدين وأحكامه، وليسهل على نفوسهم تقبله، ولو نزلت جميع الأحكام دفعة واحدة، فلربما ثقل على الناس وشق عليهم ذلك ، فلما نزل القرآن منجماً (مفرقاً) نزلت الأحكام والتكاليف قليلاً قليلاً وشيئا فشيئا ، فسهل على الناس تحملها؛ فقد دعاهم أولاً إلى كلمة التوحيد، فلما قالوها وذاقوا حلاوة الإيمان، قبلوا ما وراءها كلمة بعد كلمة وحكماً بعد حكم وتكليفاً بعد تكليف، حتى تم الدين وتكاملت شريعته .

٤. مسايرة الوقائع والأحداث التي كانت تحدث في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان القرآن ينزل أحياناً بحسب أسئلتهم والوقائع الطارئة لهم، فكانوا يزدادون بصيرة وعلماً، ويوقنون يقيناً جازماً بأن القرآن تنزيل من حكيم حميد .

المطلب الثاني: الغرض من إنزال القرآن

أنزل الله القرآن الكريم رحمة للعالمين، وهداية للناس أجمعين، وحياة لقلوبهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، مشتملاً على جميع مصالحهم الدنيوية والأخروية، فيجد الإنسان في القرآن الكريم مطالبة الروحية والمادية، والإيمان والإعمار والدنيا والآخرة، بل دعا إلى جعل الدنيا مزرعة للآخرة وجسراً موصلاً إليها، ضمنه الله تعالى أوامره وحقه الذي أوجبه على عباده وشرائعه التي شرعها لهم[٩] . وجعله روحاً يحي به قلوب من شاء من عباده، يرفع به قوماً ويضع آخرين قال تعالى : (وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ

[٩]) اغاثة اللهفان لابن قيم الجوزية ١ / ٥٠

تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢)[الشورى:٥٢] .

ولقد ذكر الله تعالى الغايات التي من أجلها أنزل هذا القرآن العظيم، وبين في مواضع عديدة من كتابه الكريم الأغراض التي من أجلها أنزل القرآن فمن ذلك:-

١- الإيمان به والحكم بما اشتمل عليه من تشريعات وأحكام ، قال تعالى : (وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ٤١)[البقرة:٤١] . ودعا المؤمنين إلى الإيمان بالقرآن والكتب التي أنزلت من قبل فقال سبحانه : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦)[النساء:١٣٦] . وفي الحكم به وبما اشتمل عليه من أحكام ، يقول الله عز وجل: (إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥)[النساء:١٠٥] . وعد الذين يعدلون عن حكم الله في القرآن كافرين وظالمين وفاسقين قال تعالى: (وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٤)[المائدة:٤٤] .

٢- تلاوته وتعلمه وتعليمه، يظهر ذلك من خلال مدح الله لعباده الذين يتلون القرآن في قوله تعالى : (ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١)[البقرة:١٢١]، كما مدحهم بانهم بتلاوتهم للقرآن يرجون تجارة لن تبور، في قولـه عز وجل: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩)[فاطر:٢٩] . وامتن على هذه الأمة بأنه بعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة قال تعالى: (هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢)[الجمعة:٢] وعلل سبحانه رسالة النبي صلى الله عليه وسلم بانها إنما كانت ليتلوا على أمته القرآن قال تعالى: (كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ

مَتَابِ ٣٠)[الرعد:٣٠] . وقال تعالى : (وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ١٠٦)[الإسراء:١٠٦] .

٣- تدبره وحفظه وتذكره والعمل بمقتضاه، فقد بين سبحانه وتعالى أنه إنما أنزل الكتاب للتدبر في آياته وتفهمها وليتذكر أولو الألباب، قال تعالى: (كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ٢٩)[ص:٢٩]وحث عباده على تدبر القرآن والتأمل فيه ليتحققوا من كونه منزلاً من عند الله تعالى قال عز وجل (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ٨٢)[النساء:٨٢] وامتن عليهم بأنه يسر لهم ذكره وحفظه، فقال تعالى : (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ١٧)[القمر:١٧]، قال في الكشاف : أي سهلناه للادكار والاتعاظ بأن نسجناه بالمواعظ الشافية، وصرفنا فيه من الوعد والوعيد"[١٠].

٤- جعله تبياناً لكل شيء وهدى ورحمةً وشفاءً وبشرى للمؤمنين، قال تعالى: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ٨٩)[النحل:٨٩]، كما جعل فيه شفاءً ورحمة للمؤمنين، قال تعالى (وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ٨٢)[الإسراء:٨٢] .

٥- تثبيت قلب النبي عليه الصلاة والسلام وقلوب المؤمنين وهدى وبشرى للمسلمين قال تعالى : (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ٣٢)[الفرقان:٣٢]. (قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ١٠٢)[النحل:١٠٢] .

٦- أن يقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي به قامت السماوات والأرض[١١]، ويشهد لذلك قول الله تعالى (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ٢٥)[الحديد:٢٥]، وقوله سبحانه : (وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ١٥)[الشورى:١٥].

---

[١٠] البرهان في علوم الفرآن للزركشي ٩/٣ ،

[١١]) الجواب الكافي لابن قيم الجوزية ص١٥١.

٧- جعله روحاً يحيي الله به قلوب من شاء من الخلق، ونوراً يضيء للبشرية طريق الحق، ويسوقها إلى طريق الله المستقيم، كما قال تعالى (وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢)[الشورى:٥٢]، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن الله قال تعالى: (الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١)[إبراهيم:١]، وقال سبحانه: (فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ١٠رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ ١١) [الطلاق:١٠،١١].

٨- تبشير الصحابة بما لهم عند الله تعالى والثناء عليهم وموافقة الملهمين منهم والإجابة على أسئلتهم وتقويم أخطائهم وتوجيههم .

المبحث الثاني: التعريف بأسباب النزول وأهميتها وفوائدها وأثرها:

المطلب الأول: التعريف بأسباب النزول:

السبب في اللغة: هو الحبل، وسمي كل ما يتوصل به إلى غيره سببا، والجمع أسباب، وأسباب السماء: مراقيها ونواحيها وأبوابها، وقطع الله به السبب: أي الحياة وقوله تعالى: (وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ٨٤)[الكهف:٨٤]: أي آتاه الله من كل شيء معرفة وذريعة يتوصل بها ، وقوله تعالى: (وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ)[غافر:٣٦ ٣٧]: أي لعلي أبلغ الأسباب والذرائع الحادثة في السماء، فأتوصل بها إلى معرفة ما يدعيه موسى[١٢]، ومن هنا يظهر جليا أن السبب هو: ما يتوصل به إلى غيره، وسبب النزول هو ذريعة وسبب قوي ومهم يتوصل به لمعرفة معنى الآية وتفسيرها .

[١٢] المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٢٢٠، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز محمد بن يعقوب الفيروز أبادي ٣ /١٦٩ وانظر أيضا القاموس المحيط للمؤلف نفسه ص٨٩.

أسباب النزول في اصطلاح المفسرين:

سبب النزول: هو علم يبحث فيه عن أسباب نزول الآية أو السورة، ومكانها ووقتها وغير ذلك مما يتعلق بها[١٣]، وهو أحد فروع أصول التفسير والغرض منه هو ضبط تلك الأمور .

وقيل: هو ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه، كحادثة أو سؤال وينبغي الانتباه لوقت وقوعه لاعتبار سبب النزول ، ولذلك يقول السيوطي رحمه الله في تعريفه لأسباب النزول : والذي يتحرر في سبب النزول : أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه؛ ليخرج ما ذكره الواحدي في تفسيره لسورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة، فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء، بل من باب الإخبار عن الوقائع الماضية[١٤].

ويعرفه الزرقاني رحمه الله فيقول : (سبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه)[١٥]. وقال الزركشي رحمه الله: هو علم نزول الآية وقصتها[١٦].

ومن هنا يتبين لنا عدة شروط ينبغي توفرها في أسباب النزول أهمها:

- أن تكون الآيات نزلت وقت وقوع الحدث، كما في حادثة خولة بنت ثعلبة عندما ظاهر منها زوجها. أو بعده بمدة كما في حادثة الإفك.
- أن تكون الآيات التي نزلت، مجيبة على سؤال وجه إلى رسول الله ﷺ، كسؤال اليهود عن ذي القرنين.
- أن تكون الآيات التي نزلت، مبينة لحكم أشكل على الصحابة رضوان الله عليهم في زمن النبي ﷺ.

---

[١٣] أصول التفسير وقواعده، خالد عبد الرحمن العك، ص٩٩.

[١٤] أسباب النزول، جلال الدين السيوطي، ص ١١.

[١٥] مناهل العرفان محمد عبد العظيم الزرقاني ١ / ١٠٦.

[١٦] البرهان في علوم القرآن، الزركشي ١ / ٤٩.

المطلب الثاني: أهمية معرفة أسباب النزول: إن علم أسباب النزول أحد علوم القرآن الهامة وفرع من فروع التفسير التي يتبين بها مقاصد القرآن، ويندفع بها الكثير من الشبهات والإشكالات، وله أثر كبير في فهم معنى الآية؛ لذا عده العلماء من الأمور والعلوم التي لا غنى للمفسر عنها، والتي يحتاجها لبيان كتاب الله وتفسيره، يقول الشاطبي رحمه الله : (معرفة أسباب التنزيل لازمة لمن أراد علم القرآن)[١٧]، بل إنه يعد أحد الأصول التي ينبغي أن يعتمد عليها المفسر في تفسيره لكتاب الله عز وجل، فهو أحد أصول التفسير الهامة، وهو أحد الأسس التي يستند إليها المفسر في إدراك وفهم كتاب الله تعالى، لذلك عده العلماء شرطا أساس من شروط أهلية المفسر لكلام الله تعالى، ومما يدل على ذلك الخطأ الذي قد يقع فيه البعض في فهم آيات كتاب الله تعالى مثل قوله تعالى : (وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ١١٥)[البقرة:١١٥]، إذ قد يفهم البعض منها جواز التوجه في الصلاة إلى غير القبلة وهذا فهم خاطئ؛ لأن استقبال القبلة شرط في صحة الصلاة، لكن إذا عرف سبب النزول يتضح فهم الآية، فقد نزلت هذه الآية الكريمة فيمن كان في سفر ولم يعرف جهة القبلة، وفي هذه الحالة ينبغي أن يجتهد ويتحرى ثم يصلي، فإلى أي جهة صلى تصح صلاته ، ولا تجب عليه الإعادة. ومن هنا يظهر أن الآية ليست عامة وإنما هي خاصة فيمن جهل القبلة فلم يعرف جهتها .

ولأسباب النزول أهمية كبيرة في معرفة تفسير القرآن، فقد ورد عن كثير من أئمة السلف أقوال وآثار تدل على أهميته وفوائد معرفته ، ويمكن أن نبين مراتب أهميته في التفسير من خلال كلام ابن عاشور رحمه الله حيث يقول: (إن من أسباب النزول ما ليس للمفسر بغنى عن علمه ؛ لأن فيها :

- ✓ بيان مجمل أو إيضاح خفي وموجز
- ✓ ومنها ما يكون وحده تفسيرا
- ✓ ومنها ما يدل المفسر على طلب الأدلة التي بها تأويل الآية أو نحو ذلك

[١٧]) الموافقات في أصول الشريعة ص ٦٧٥

✓ ومنها ما ينبه المفسر على إدراك خصوصيات بلاغية تتبع مقتضى المقامات، فإن من أسباب النزول ما يعين على تصوير مقام الكلام [١٨].

ولبيان أهميته سأعرض بعض أقوال العلماء في هذا الأصل الهام من أصول التفسير :-

- عن الحسن رحمه الله قال : ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيم أنزلت وما أراد بها) .
- يقول الواحدي : إذ هي أي أسباب النزول – أوفى ما يجب الوقوف عليها، وأولى ما تصرف العناية إليها؛ لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها[١٩].
- يقول ابن دقيق العيد رحمه الله : (بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن) .
- يقول ابن تيمية رحمه الله : (ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية ، فإن العلم السبب يورث العلم بالمسبب، وقد أشكل على جماعة من السلف معاني آيات حتى وقفوا على أسباب نزولها، فزال عنهم الإشكال)[٢٠]
- ويقول محمد بن المرتضى اليماني : وهو أي سبب النزول – مفيد جدا لأن العموم الوارد على سبب مختلف في تعديه عن سببه وهو نص في سببه ظني في غيره ، وقد يقصر عليه بالإجماع كما ثبت في قوله تعالى في ذم الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في اليهود وفرحهم بما أتوا من التكذيب بالحق، فلولا ذلك أشكلت وتناولت من فرح بعمله من الخير . وقد صح أن المؤمن من سرته حسنته وساءته سيئته والفرح بالخير والطاعة من ضروريات الطباع السليمة [٢١].

---

[١٨]) التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور ١ /٤٥ .

[١٩]) أسباب النزول للواحدي ص ٧ .

[٢٠]) مقدمة في أصول التفسير لبن تيمية ص ٤٧ .

[٢١] إيثار الحق ، محمد بن المرتضى اليماني ص ١٦٣ .

- ويقول الشاطبي رحمه الله : (معرفة أسباب التنزيل لازمة لمن أراد علم القرآن، والدليل على ذلك أمران: -

أحدهما: أن علم المعاني والبيان الذي يعرف به إعجاز نظم القرآن، فضلا عن معرفة مقاصد كلام العرب، إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال حال الخطاب من جهة نفس الخطاب أو المخاطب أو الجميع، إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين وبحسب مخاطبين وبحسب غير ذلك، كالاستفهام لفظه واحد، ويدخله معان أخر من تقرير وتوبيخ وغير ذلك، وكالأمر يدخله معنى الإباحة والتهديد والتعجيز وأشباهها، ولا يدل على معناها المراد إلا الأمور الخارجة، وعمدتها مقتضيات الأحوال، وليس كل حال ينقل، ولا كل قرينة تقترن بنفس الكلام المنقول، وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة فات فهم الكلام جملة أو فهم شيء منه ، ومعرفة الأسباب رافعة لكل مشكل في هذا النمط ، فهي من المهمات في فهم الكتاب بلا بد، ومعنى معرفة السبب هو معنى معرفة مقتضى الحال.

والثاني: أن الجهل بأسباب التنزيل موقع في الشبه الإشكالات ومورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال حتى يقع الاختلاف وذلك مظنة النزاع)، ويوضح هذا المعنى ما رواه أبو عبيد عن إبراهيم التيمي قال: (خلا عمر رضي الله عنه ذات يوم، فجعل يحدث نفسه كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد وقبلتها واحدة. فقال ابن عباس رضي الله عنه: (يا أمير المؤمنين إنا أنزل علينا القرآن فقرأناه وعلمنا فيم نزل . وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرأون القرآن ولا يدرون فيم نزل فيكون لهم فيه رأي، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا . قال فزجره عمر وانتهره، فانصرف ابن عباس فنظر عمر فيما قال، فأرسل إليه فقال : أعد علي ما قلت! فأعاده عليه ، فعرف عمر قوله فأعجبه، وما قاله صحيح في الاعتبار ويتبين بما هو أقرب[٢٢]. فقد روى ابن وهب عن بكير أنه سأل نافعا كيف كان رأي عمر في الحرورية؟. قال: يراهم شرار خلق الله، أنهم انطلقوا إلى آيات أنزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين فهذا معنى الرأي

[٢٢] الموافقات في أصول الشريعة ، الشاطبي ٦٧٥ .

الذي نبه ابن عباس عليه ، وهو الناشئ عن الجهل بالمعنى الذي نزل فيه القرآن .

المطلب الثالث: فوائد معرفة أسباب النزول:

١- **أن معرفة أسباب النزول يعين على فهم الآية،** يقول الواحدي رحمه الله (إذ هي أي أسباب النزول – أوفى ما يجب الوقوف عليها، وأولى ما تصرف العناية إليها؛ لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها[٢٣] ؛ ومن الآيات التي كان لسبب النزول أثر في فهم معناها ما أخرجه البخاري ومسلم عن البراء رضي الله عنه قال : نزلت هذه الآية فينا ، كانت الأنصار إذا حجوا فجاءوا لم يدخلوا من قبل أبواب بيوتهم ، ولكن من ظهورها ، فجا رجل من الأنصار ، فدخل من قبل بابه فكأنه عير بذلك فنزلت : (وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ ١٨٩)[البقرة:١٨٩]، فسبب النزول بين أن المراد بالإتيان هو الدخول وليس مجرد المجيء ، كما أفاد أن المراد بالبيوت بيوتهم وليس بيوت غيرهم ، ولولا وجود سبب النزول ما تبين هذان المعنيان من لفظ الآية المجرد . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة رضي الله عنها عن قوله تعالى : (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ٣)[النساء:٣]، قالت هي اليتيمة في حجر وليها فيرغب في جمالها ومالها، ويريد أن يتزوجها بأدنى من سنة نسائها، فنهوا عن نكاحهن إلا أن يقسطوا لهم في إكمال الصداق، وأمروا بنكاح من سواهن من النساء، فسبب النزول هنا بين الصلة في الآية بين الأمر بالقسط في اليتامى وبين نكاح ما طاب من النساء، ولولا وجود سبب النزول لم تتبين الصلة .

٢- **العلم بسبب النزول يرفع الإشكال ويحسم النزاع.**

قال الشاطبي رحمه الله إن الجهل بأسباب التنزيل موقع في الشبه الإشكالات ومورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال حتى يقع الاختلاف وذلك مظنة

[٢٣]) أسباب النزول للواحدي ص ٧

النزاع)[٢٤]، ومن الآيات التي كان لسبب النزول أثر في دفع الإشكال عنها: ما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن عروة بن الزبير قال قلت لعائشة رضي الله عنها : أرأيت قول الله تبارك وتعالى : (۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ ١٥٨)[البقرة:١٥٨]، فلا أرى على أحد شيئا أن لا يطوف بهما؟ فقالت عائشة رضي الله عنها : كلا ، لو كانت كما تقول ، كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، إنما أنزلت هذه الآية في الأنصار كانوا يهلون لمناة، وكانت مناة حذو قديد، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله تعالى (۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ ١٥٨)[البقرة:١٥٨]، فسبب النزول هنا دفع الإشكال الذي وقع في نفس عروة بن الزبير حين ظن أن السعي بين الصفا والمروة ليس واجبا ، فبينت أم المؤمنين رضي الله عنها أن الآية إنما أنزلت لرفع الحرج عمن امتنع من السعي بينهما، بسبب ما كانوا يفعلونه في الجاهلية. وأخرج مسلم وعيره أن مروان أرسل بوابه إلى ابن عباس، وقال قل له : لئن كان كل من فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا ! لنعذبن أجمعون ! فقال ابن عباس : ما لكم ولهذه الآية ؟ إنما دعا النبي ﷺ يهود فسألهم عن شيء ، فكتموه إياه وأخبروه بغيره ، فرأوا أنهم قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم وفرحوا بما أتو من كتمانهم ثم قرأ : (وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ١٨٧)[آل عمران:١٨٧]، إلى قوله: وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ ١٨٨)[آل عمران:١٨٨]، فهذا السبب بين أن المقصود من الآية غير ما ظهر لمروان [٢٥]، ويؤكد هذا المعنى محمد بن المرتضى اليماني فيقول: "وهو- أي سبب النزول – مفيد جدا لأن العموم الوارد على سبب مختلف في تعديه عن سببه وهو نص في سببه ظني في غيره ، وقد يقصر عليه بالإجماع كما ثبت في قوله تعالى في ذم الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا عن ابن عباس رضي الله أنها نزلت في اليهود وفرحهم بما أتوا من التكذيب بالحق، فلولا ذلك أشكلت وتناولت من فرح بعمله من الخير . وقد صح أن المؤمن من سرته

[٢٤] الموافقات في أصول الشريعة ، الشاطبي ٦٧٥ .

[٢٥]) المصدر نفسه ص ٦٧٦

حسنته وساءته سيئته والفرح بالخير والطاعة من ضروريات الطباع السليمة"[٢٦].

٣- العلم بسبب النزول يبين الحكمة من تشريع الحكم:

قال الزركشي رحمه الله "وأخطأ من زعم أن لا طائل تحته – يعني العلم بأسباب النزول – لجريانه مجرى التاريخ، وليس كذلك بل له فوائد منها : وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم"[٢٧]، وقال الزرقاني مبينا فائدة العلم بحكمة التشريع : " وفي ذلك نفع للمؤمن وغير المؤمن؛ أما المؤمن فيزداد إيمانا على إيمانه ويحرص كل الحرص على تنفيذ أحكام الله ، والعمل بكتابه؛ لما يتجلى له من المصالح والمزايا التي نيطت بهذه الأحكام ، ومن أجلها جاء هذا التنزيل ، وأما الكافر فتسوقه تلك الحكم الباهرة إلى الإيمان إن كان منصفا حين يعلم أن هذا التشريع الإسلامي قام على رعاية مصالح الإنسان لا على الاستبداد والتحكم والطغيان؛ خصوصا إذا لاحظ سير ذلك التشريع وتدرجه في موضوع واحد، وحسبك شاهدا على هذا تحريم الخمر وما نزل فيه[٢٨]، ومن الأمثلة التي يبين فيها سبب النزول حكمة التشريع ما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١١٠)[الإسراء:١١٠]، قال نزلت ورسول الله ﷺ مختف بمكة ، وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به فقال الله لنبيه ﷺ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ)، أي بقراءتك ، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ، وَلَا تُخَافِتْ بِهَا)، عن أصحابك فلا تسمعهم ، وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١١٠) .

فالآية خلت من ذكر الحكمة الداعية إلى التشريع، بينما السبب نص عليها، وهي كف المشركين عن سب القرآن ومن أنزله ومن جاء به.

ومن الأمثلة التي يبين فيها سبب النزول حكمة التشريع ما أخرجه البخاري ومسلم عن سهل بن سعد أن عويمرا أتى عاصم بن عدي ، وكان سيد

---

[٢٦] إيثار الحق على الخلق ، محمد بن المرتضى اليماني ص ١٦٣ .

[٢٧]) البرهان في علوم القرآن ١ / ٤٥ .

[٢٨]) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٠٩ .

بني عجلان فقال: كيف تقولون في رجل وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ سل لي رسول الله ﷺ عن ذلك فأتى عاصم النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، فكره رسول الله ﷺ المسائل . فسأله عويمر ، فقال إن رسول الله ﷺ كره المسائل وعابها . قال عويمر والله لا أنتهي حتى أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك . فجاء عويمر فقال : يا رسول الله رجل وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه، أم كيف يصنع؟ فقال رسول الله ﷺ : قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبتك، فأمرهما رسول الله ﷺ بالملاعنة بما سمى الله في كتابه فلاعنها .

فآيات اللعان خلت من ذكر الحكمة الداعية إلى التشريع ، لكن السبب بينها، ذلك أن الزوج هنا بين أمرين عظيمين؛ إن تكلم فحد القذف جزاؤه، وإن سكت سكت على أمر عظيم ، ولا يطيق هذا مؤمن، فكانت مشروعية اللعان مخرجا من حد القذف، و مخرجا من السكوت على ريبة رآها في أهله من أن ينسب إليه ولد ليس منه ، والآية وإن أشارت إلى الحكمة إلا أنها لم توضحها كما وضحها سبب النزول.

٤- تخصيص الحكم بالسبب الذي نزل من أجله:

قال الزركشي : ومنها أي -من فوائد أسباب النزول – تخصيص الحكم به - أي بالسبب - عند من أن العبرة بخصوص السبب[٢٩] . وتخصيص الحكم بالسبب لا ينافي العموم، لكن القائلين به يقولون أخذنا ذلك العموم من القياس، أي قياس الحوادث المشابهة على الحوادث الواقعة في العهد النبوي، ولم نأخذ العموم من طريق اللفظ العام؛ لأن هذا اللفظ العام مختص بسببه ، وكل سبب نزول يصح أن يكون مثالا لهذا، عند من يرى من أن العبرة بخصوص السبب .

٥- دفع توهم الحصر

قال الزركشي : (قال الشافعي رحمه الله في معنى قوله تعالى : (قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ ١٤٥)[الأنعام:١٤٥]، إن الكفار لما حرموا ما أحل الله وأحلوا ما حرم الله ،

[٢٩]) البرهان في علوم القرآن ١ / ٢٢ .

وكانوا على المضادة والمحادة جاءت الآية مناقضة لغرضهم، فكأنه قال لا حلال إلا ما حرمتموه ولا حرام إلا ما أحللتموه نازلا منزلة من يقول : لا تأكل اليوم حلاوة ، فتقول لا آكل اليوم إلا الحلاوة ، والغرض المضادة لا النفي والإثبات على الحقيقة ، فكأنه قال لا حرام إلا ما أحللتموه من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، ولم يقصد حل ما وراءه إذ القصد إثبات التحريم، لا إثبات الحل[٣٠] .

٦- بيان خصوصية السبب بالحكم

قال الطوفي: (أي أن الحكم أخص بالسبب من غيره من صوره؛ لأن اللفظ ورد بيانا لحكم السبب فكان مقطوعا به فيه فيمتنع تخصيصه بالاجتهاد)[٣١]

٧- معرفة التاريخ

قال الطوفي: (معرفة تاريخ الحكم بمعرفة سببه، مثل أن يقال : قذف هلال بن أمية امرأته في سنة كذا فنزلت آية اللعان، فيعرف تاريخها بذلك ، وفي معرفة التاريخ فائدة معرفة الناسخ من المنسوخ)[٣٢] .

٨- معرفة دلالة إعجازه

يقول ابن عاشور : (وثمة فائدة أخرى عظيمة لأسباب النزول، وهي أن نزول القرآن عند حدوث حوادث دلالة على إعجازه من ناحية الارتجال، وهي إحدى طريقتين لبلغاء العرب في أقوالهم، فنزوله على حوادث يقطع دعوى من ادعوا أنه أساطير الأولين [٣٣].

٩- تعيين المبهم يقول السيوطي : (ومنها معرفة اسم النازل فيه الآية وتعيين المبهم فيها)[٣٤] وقال الزرقاني : (ومن فوائد معرفة أسباب النزول معرفة من نزلت فيه الآية على التعيين، حتى لا يشتبه بغيره ، فيتهم البريء ويبرأ

---

[٣٠]) البرهان في علوم القرآن ١ / ٢٣ .

[٣١]) شرح مختصر الروضة ، سليمان الطوفي ٢ / ٥٠٦ .

[٣٢]) شرح مختصر الروضة ، سليمان الطوفي ٢ / ٥٠٧ .

[٣٣]) التحرير والتنوير لابن عاشور ١ / ٥٠ .

[٣٤]) الاتقان في علوم القرآن ١ / ٨٦ .

المريب)[٣٥]، ومن الأحاديث الدالة على ذلك ما أخرجه البخاري عن يوسف بن ماهك قال كان مروان على الحجاز استعمله معاوية رضي الله عنه، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه ، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما شيئا ، فقال : خذوه فدخل بيت عائشة رضي الله عنها، فلم يقدروا، فقال مروان إن هذا الذي أنزل الله فيه (وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي ١٧)[الأحقاف:١٧]، فقالت عائشة رضي الله عنها من وراء الحجاب : ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن إلا أن الله أنزل عذري [٣٦].

١٠- تيسير الفهم والحفظ :

قال الزرقاني : " تيسير الحفظ وتسهيل الفهم وتثبيت الوحي في ذهن كل من يسمع الآية إذا عرف سببها؛ وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات والأحكام بالحوادث ، والحوادث بالأشخاص والازمنة والأمكنة ، كل أولئك من دواعي تقرر الأشياء ، وانتقاشها في الذهن وسهولة استذكارها عند استذكار مقارناتها وذلك هو قانون تداعي المعاني المقرر في علم النفس"[٣٧].

المطلب الرابع : أثر أسباب النزول في التفسير وبيان المراد[٣٨] :

١- أنها تصور لنا عصر التنزيل وتبين واقع من تنزل عليهم القرآن لتعليمهم وتوجيههم وتربيتهم، و تصور بيئتهم العامة والمفاهيم التي كانت سائدة بينهم وغيرها من الأمور التي تقدم لنا نفعا جليلا في فهم المعنى وتنبئ عن المناخ الذي نزل خلاله النص ، وهذا بالضرورة يساعدنا على فهم الآية من خلال واقع البيئة والمجتمع الذي نزلت فيه لا من واقعنا المعاصر.

---

[٣٥]) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١١٣ .

[٣٦]) أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب قول الله تعالى : ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ ﴾ حديث رقم ٤٥٥٠.

[٣٧]) مناهل العرفان ، للزرقاني ١ / ١١٣ ،

[٣٨]) المحرر في أسباب نزول القرآن ، خالد سليمان المزيني ص ٢٠.

٢- انها تبين لنا الحالة النفسية والفكرية والاجتماعية للمجتمع الذي نزل عليهم القرآن وهو الأمر الذي يعين المفسر على فهم المعنى المراد واستنباط الفوائد من الآيات .

٣- أنها اشتملت على حكم التشريع البالغة وأسرارها الباهرة التي تعد من الشواهد على كمال علم الله تعالى وحكمته ولطفه بعباده؛ لذا نجد أن الله سبحانه وتعالى يقرن الحكم بعلته في كثير من المواضع من القرآن الكريم، ومن ذلك على سبيل التمثيل : -

- قوله تعالى: (وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ١٤٣)[البقرة:١٤٣].
- قوله تعالى: (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ ٢٢٢)[البقرة:٢٢٢] .
- قوله تعالى: (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ٣)[النساء:٣].

٤- أن لأسباب النزول أثرا في البيان فهي تخصص العام وتقيد المطلق وترفع الإجمال ، ذلك أن أسباب النزول نوع من أنواع النصوص الشرعية يطرأ عليها ما يطرأ على بقية النصوص، فيعترضها ما يعترضها من العموم والخصوص أو الإطلاق والتقييد أو غير ذلك ، وتتحول دلالتها إلى الوجهة التي تفرضها الطبيعة البنائية للنص نفسه ، فتارة يكون سبب النزول عاما وتارة خاصا وتارة مطلقا وتارة مقيدا، وكذلك يكون النص القرآني الذي ارتبط به سبب النزول عاما أو خاصا أو مطلقا أو مقيدا، ومن خلال اتصاف النص وسبب نزوله ببعض هذه العوارض اللفظية ترتسم عملية البيان التي توضح معنى النص وسبب نزوله[٣٩] .

الخاتمة:

توصل الباحث إلى النتائج والتوصيات التالية :-

[٣٩]) أسباب النزول وأثرها في بيان النصوص ، عماد الدين محمد الرشيد ص٣٦٧.

١- أن القرآن الكريم نزل على ضربين : ما نزل ابتداء بدون سبب، وما نزل لسبب اقتضى نزوله .
٢- أن القرآن الكريم نزل لأغراض متعددة أهمها : الإيمان به والعمل به وتلاوته وحفظه وفهمه وتدبره والتحاكم إليه والحكم به .
٣- إن علم أسباب النزول أحد علوم القرآن الهامة التي يتبين بها مقاصد القرآن ويندفع بها الكثير من الشبهات .
٤- أن أسباب النزول له أثر كبير في فهم معنى الآية ؛ لذا عده العلماء من العلوم التي لا غنى للمفسر عنها .
٥- أن أسباب النزول له فوائد جليلة، وآثار واضحة في التفسير وبيان المراد من النصوص الشرعية .
٦- يوصي الباحث بدراسة أسباب النزول دراسة متعمقة وتجريدها مما علق بها من غيرها، وإفراد الصحيح منها بمؤلفات يستفيد منها الباحثون في مجال التفسير وعلوم القرآن .
٧- يوصي الباحث بدراسة العلاقة الوثيقة بين أسباب النزول وعلوم القرآن الأخرى كالمكي والمدني والمناسبات وغيرها من العلوم .
٨- كما يوصي الباحث بدراسة العلاقة بين أسباب النزول والاختلاف في التفسير، وكذلك العلاقة بين أسباب النزول وقواعد الترجيح .

المصادر والمراجع:

- القرآن الكـريم.
- الإتقان في علوم القرآن . جلال الدين السيوطي . تحقيق محمد أبو افضل إبراهيم . الهيئة المصرية العامة للكتاب . ١٩٧٤م .
- إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول . محمد بن علي الشوكاني . تحقيق : أبي مصعب محمد سعيد البدري . (بيروت : مؤسسة الكتب الثقافية) ط : ٨ . ٢٠٠٧ م .
- أسباب نزول القرآن . أبو الحسن الواحـدي . تحـقيق ماهر ياسـين الفحـل . (الرياض : دار الميمان) ط ١ ٢٠٠٥ م .

- أسباب النزول . جلال الدين السيوطي . دراسة وتحقيق : حامد أحمد طاهر . (القاهرة : دار الفجر للتراث) ط١ . ١٤٢٣هـ .
- أسباب النزول وأثرها في بيان النصوص دراسة مقارنة بين أصول التفسير وأصول الفقه. عماد الدين محمد الرشيد . (دمشق : دار الشهاب) . ١٩٩٩م.
- أصول التفسير. محمد الصالح العثيمين . (القاهرة : مطبعة المديني) ط٤ ١٩٩٢م.
- أصول التفسير وقواعده . خالد عبد الرحمن العك . (بيروت : دار النفائس) ط. ٢ ، ١٩٨٦ م .
- إظهار الحق. رحمه الله الهندي. (بيروت: دار الجبل) . ط ١. ١٩٨٨ م.
- إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية تحقيق : محمد عفيفي (بيروت: المكتب الإسلامي) ط: ٢ . ١٩٨٩م .
- إيثار الحق على الخلق . محمد بن المرتضى اليماني .(بيروت : دار الكتب العلمية) . ١٣١٨ هـ .
- البرهان في علوم القرآن . بدر الدين الزركشي . تحقيق : يوسف المرعشلي وآخرون . (بيروت : دار المعرفة) ط٢ ١٩٩١م .
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي . تحقيق محمد النجار (بيروت: المكتبة العلمية).
- البيان في علوم القرآن، محمد الصابوني (بيروت : عالم الكتب) ط١ ١٩٨٥م .
- التحرير والتنوير . محمد الطاهر بن عاشور . (بيروت : مؤسسة التاريخ) ط : ١ ٢٠٠٠ م .
- الجواب الكافي . لابن قيم الجوزية . (القاهرة : دار الريان) ط٢ ١٩٨٨م.
- القاموس المحيط . مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي . ضبط وتوثيق : يوسف البقاعي . (بيروت : دار الفكر) ١٤١٥هـ .
- لباب النقول في أسباب النزول . جلال الدين السيوطي . دراسة وتحقيق حامد أحمد الظاهر . (القاهرة : دار الفجر للتراث) . ط ١ . ٢٠٠٢م .

- المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة . خالد سليمان المزيني . (الدمام : دار ابن الجوزي) . ط ١ ١٤٢٧هـ .
- ا المستدرك على الصحيحين . أبو عبد الله الحاكم . دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا . (بيروت : دار الكتب العلمية) ط : ١. ١٩٩٠م .
- معارج القبول شرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد . حافظ بن أحمد حكمي . مطبوعات الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية الإفتاء والدعوة والإرشاد بالسعودية .
- المفردات في غريب القرآن. أبو القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني ، (بيروت: دار المعرفة) .
- مقدمة في أصول التفسير . أحمد بن عبد الحليم بن تيمية . (بيروت : مكتبة الحياة) . ١٩٨٠م.
- مناهل العرفان في علوم القرآن . محمد عبد العظيم الزرقاني . (بيروت : دار الفكر) . ط ١ . ٢٠٠٤ م .
- الموافقات في أصول الشريعة . أبو إسحاق الشاطبي، شرحه وخرج أحاديثه عبد الله دراز . (بيروت : دار الكتب العلمية) ط١ ٢٠٠٤م.
- النبوات، لابن تيمية ، تحقيق عبد الرحمن عوض (بيروت : دار الكتاب العربي) ط١ ١٩٨٥م.